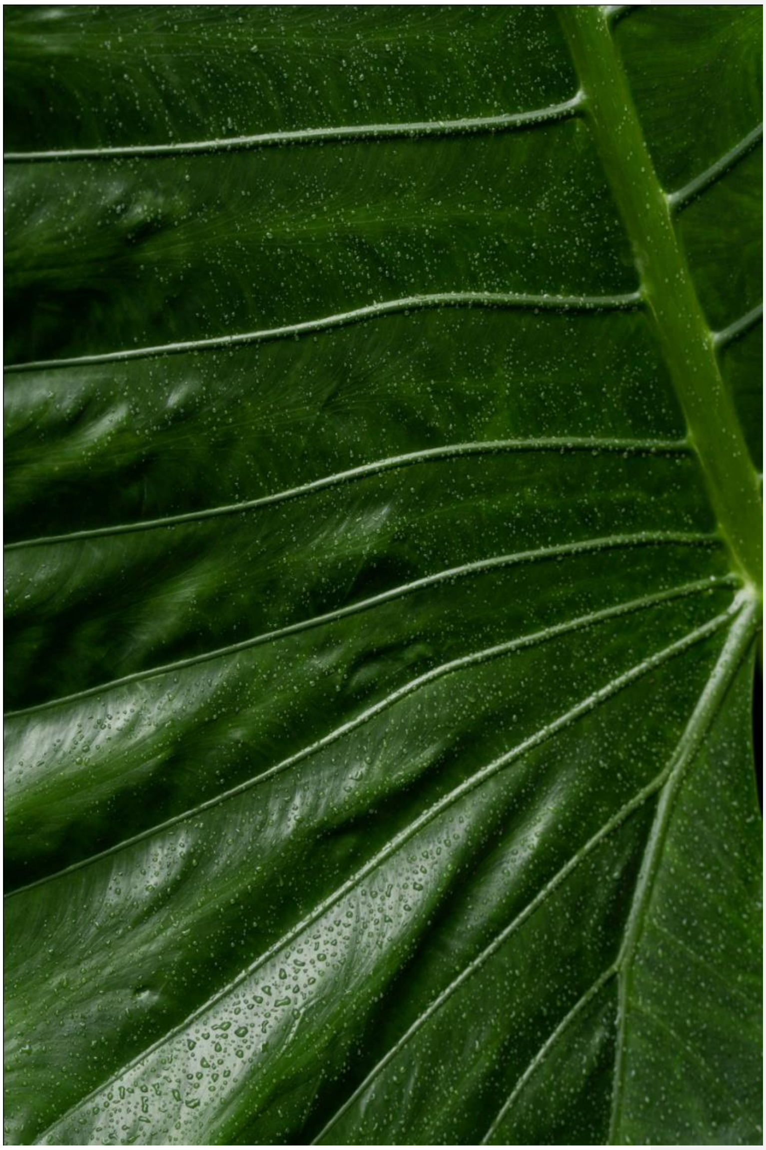

و للروح ارتواء

تفريغ محاضرة

فصول الحياة

رواء الاثنين | د.هند القحطاني

٢٣/٦/١٤٤٤ هـ

"فصول الحياة"

إنّ الحمدَ لله نحمدُه، ونستعينه ونستهديه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسنا، ومن سيّئات أعمالِنا، من يهدِهِ الله فلا مُضِلَّ له، ومن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهد أنَ لا إله إلّا الله وحدَه لا شريك له، وأنّ مُحمّدًا عبدُه ورسوله.

في هذه الأيام التي نعيشها تنتهي إجازةٌ وتبدأ أخرى، ويبدأ أسبوعٌ وينتهي آخرُ، ويبدأ فصلٌ وينتهي فصلٌ آخر وبدأ الثالث وسينتهي بإذن الله، وهكذا حياتنا الخاصّة؛ يبدأ فيها فصلٌ من فصول السّرّاء وينتهي أحيانًا، فيبدأ فصلٌ من فصول الضّرّاء وينتهي أحيانًا، فصلٌ كاملٌ من الضّرّاء قد ينتهي بنهايةٍ سعيدةٍ، فالحياة لا يمكن أنْ تكونَ فصلًا واحدًا، ولا يمكن للإنسان أنْ يعيشَ في نكَدٍ أو جحيمٍ مُستمرّينِ، فلو كنتَ أغنى الأغنياء، وتعيشُ في قصرٍ، وكلُّ أوامرك مُجَابةٌ، فسيأتي يومٌ يتغيّرُ حالك وتمرض، وفي المُقابل؛ لو كنتَ أشقى الأشقياء، فقد تبتدئُ حياةً اجتماعيّةً جديدة، قد تتزوّجُ، أو تلتحقُ بعملٍ مناسبٍ،

فهذه هي الحياة؛ مزيجٌ من الأفراحِ والأحزان، والسّعادةِ والشّقاء، فرُبَّ حزنٍ يصيب الإنسانَ يظنُّ أنّه لن ينهضَ بعده، كمصائبِ الموت مثلًا أو الأمراضِ المُزمنة، ويمرُّ الوقت، فإذا بالجرح يلتئم، والسّعادة تعود...

لذلك فإنّنا مُطالَبون في هذه الفصول الحياتيّة بأنواعٍ من التعبُّد، فلا ينبغي للإنسان أنْ يعيشَ لمجرّد العيش فقط، فهذه فكرةُ العِلمانيّين أو اللّادينيّين الذين لايؤمنون بوجود ربٍّ أو حياةٍ سنحاسَب عليها، فهؤلاء يعيشون دون أنْ يفكّروا ماذا بعد الحياة الدّنيا، أمّا نحن المسلمون فنختلفُ كلَّ الاختلاف عن أولئك، فنحن نؤمِن أنّ حياتَنا كتابٌ كبيرٌ تُسجَّل فصولَه يومًا بيومٍ،

وقد علّمنا النّبيّ ﷺ شيئًا من أسراره، وكيف تتعاقبُ على كتابته الكَتَبَةُ من الملائكة، وكيف يتناوبون علينا في صلاة الفجر وصلاة العصر، فهم يكتبون كلّ عملٍ من أعمال الإنسان الحسَنةِ والسيّئة، فتُرْفَعُ صحفُ الإنسان بعد أنْ تختمَها في نهاية اليوم، عند غروبِ الشّمس، ولذلك فإنّ لحظةَ الغروب هي -في الحقيقة- لحظةُ تدبّرٍ حقيقيٍّ؛ إذْ ينبغي على كلّ ذي لُبٍّ أنْ يسألَ نفسه في نهاية كلِّ يوم: بِمَ ختمتُ يومي؟ بعملٍ صالحٍ؟ أم بذنبٍ؟ بحمدِ اللهِ وشكرِه؟ أم بالجحود؟

لذلك لا بدّ لنا أنْ نتأمّلَ سنينَ أعمارِنا، ونتنبّهَ لصحيفتِنا، صحيفتُنا التي إنْ طُويَت فلن تُفتَحَ إلّا عند الله سبحانه وتعالى يومَ الحساب، عندما يُسلّمها سبحانه وتعالى لصاحبها يومَ العَرض عليه، يومَ يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ (الإسراء: ١٤).

ويُذكر أنّ الحسن البصريّ -رحمه الله-قال عندما قرأ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعجَل عَلَيهِمۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُم عَدّا﴾ (مريم: ٤٨): "آخرُ العَدَدِ انقطاعُ النَّفَس"، فالله تعالى يَعُدُّ للظالمين بعَدَدِ الأنفاس، لا بالأيّام ولا بالسّنوات. ويقول الله عزّ وجلّ في آيةٍ أخرى مؤكدًا ذلك: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف: ٤٣).

❖ **فما الذي يجبُ أنْ نفعلَه عندما تتقلّبُ بِنا فصولُ الحياة؟**

<u>أولًا: العيشُ باحتسابِ فكرةِ الابتلاء:</u>

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك: 2).

ويقول جلّ جلاله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ (الإنسان: 20).

فلا تظُنَّنْ أنَّ الابتلاءَ لا يكون إلّا بالمرض الأبديّ الذي يُبقِي صاحبَه في سريره طوال عمره، أو الفقرِ المُدقع، فالغنيُّ والصّحيحُ الخالي من الأمراض مُبتلًى أيضًا، والحياةُ كلّها -إنْ طالت أو قصُرتْ- ابتلاءٌ، سواءٌ كنتَ في ضرّاءٍ أو سرّاء.

ولقد خلقَ الله عزّ وجلّ هذه الحياة وجعلَ لها فصولًا مختلفةً؛ الموتَ والحياة، السّعادةَ والحزن، الضحكَ والبكاء، إلّا أنّه جعلها متقلبةً؛ إذ لا تدومُ على حالٍ معين، فعِشْ بها على هذا الأساس، بهذا الميزان الواقعي، في هذا الامتحان الشّامل لكلّ البشر، بلا إحساسٍ بشعورِ الضّحيّة، وأنّك لا تملك حظًّا من الدّنيا، وإنما احرَص على النّجاح في هذا الامتحان، مهما عضّتك الدّنيا وآلمتك.
وفي المقابل أيضًا؛ مهما فتحَتْ الدّنيا لك أبوابَها وامتُحِنْتَ بالسّراء فاحرصْ على النّجاح، واحذرْ أنْ تكون تلك السّعةُ استدراجًا، فالله تعالى ذكر في قرآنه أنّه فتحَ كافّة أبواب الدّنيا للغافلين ليفرحوا بها، لأنّه بعد ذلك سيأخذهم بشكلٍ مفاجئٍ فإذا هم آيسونَ مُنقطعون من كلِّ خيرٍ، يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ (الأنعام: ٤٤).

ولعلّنا نكثِرُ مِن التّساؤل عن السّببِ الجوهريّ للابتلاء، ففكرةُ أنّ الإنسان مُمتحَنٌ ليست سهلةً، فالامتحان الدّراسي -مثلًا- يُبقِي مشاعرَ الطّالب في توترٍ وقلقٍ عميقَيْن، فما بالك بامتحان العمر كاملًا؟

إلّا أنّ اللّه َعزّ وجلّ أخبرنا السّببَ وراءَ الابتلاء -لهُ الحمد والمِنّة- فقد قال جلَّ جلاله:﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(الملك: 2)، فنحن لا نعيش في هذه الدنّيا من أجل التّرف والنّعيم، لذلك قلنا قبل قليلٍ: إنّ الملاحدةَ والعِلمانيّين يتهرّبون بكُفرهم من لحظات تأنيبِ الضّمير، وهذا ما يجعل اقترافَ الذّنوب وإشباعَ اللّذّات سهلًا ميَسّرًا.
يقول عمر بن الخطّاب -رضي اللّه عنه-: **"أنْ تصحبَ أقوامًا يخوّفونكَ حتّى تأمَنَ، خيرٌ لك من أن تصحبَ أقوامًا يأمنونَكَ حتّى تخافَ".**

فعِش في هذه الحياة وفصولها وأنت مدركٌ أنّك ممتحنٌ، وكن عبدًا صابرًا شاكرًا إذا أَغلقتِ الدّنيا أبوابها في وجهك، وكنْ كذلك أيضًا إذا فُتحتْها لك، ولا تطغَ، ولا تتكبرْ، ولا تتجبّرْ، مهما علا شأنُك، ولا تُغيّرْ مبادئَك بتغيُّرِ دنياك، واحرصْ أنْ تبقَ ضمن دائرة رضى اللّه سبحانه وتعالى، وتحت الغاية التي خلقَك لأجلها، ولا تكن مِن المُنافقين الذين يعرّضهم اللّه تعالى للفِتن والابتلاءات باستمرارٍ، يقول عز وجل: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (التّوبة: 26).

ثانيًا- العَيش بنفسيّة الرّحيل:

فعن أبي هريرة -رضي اللّه عنه- قال: قال النبي ﷺ: **"لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ؛ فَتَكُونَ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَيَكُونَ الشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ، وَتَكُونَ الْجُمُعَةُ، كَالْيَوْمِ وَيَكُونَ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ، وَتَكُونَ السَّاعَةُ كَاحْتِرَاقِ السَّعَفَةِ الْخُوصَةُ".**[1]

قوله: **"لا تقومُ السّاعةُ حتّى يتقاربَ الزّمان"**؛ أي: يطيبَ الزمانُ حتّى لا يُستطَال، وأيامُ السّرور قصيرة، وهذا كنايةٌ عن قِصَرِ الأعمار، وقلّةِ البركة.

والسَّعَفَة؛ هي الشيءُ من الشّجر، وهذه كنايةٌ عن سرعةِ احتراقِها، وهكذا تكون الأيامُ في سرعةِ انقضائِها.
لذلك فإنّ غيابَ بركةِ الأيّام في أيامنا هذه تُحتِّمُ على المُسلمِ أنْ يعيش عُمرَه وهو يُدرِك أنه على وشكِ الرّحيل.

وعن ابن مسعود -رضي اللّه عنه- قال: قال النّبيّ ﷺ: **"مالي وللدّنيا! ما أنا والدّنيا إلّا كراكبٍ استظَلّ تحت شجرةٍ، ثم راحَ وتركَها".**[2]

---

[1] أخرجه أحمد في مسنده، وصحّحه الألباني.

[2] أخرجه الترمذي في سننه، وصحّحه الألباني.

فالنّبيّ ﷺ يُشبّه عمرَه في هذه الحياةِ الدّنيا برجلٍ أخذَ قسطًا من النّوم(قيلولةً) في ظِلّ شجرةٍ ثمّ غادرَها.

فالفكرةُ أنّ الدّنيا كلَّها ساعةٌ أو ساعتان، وسندرك حقيقةَ هذا الكلام في آخرِ لحظاتِ العمر، ولن ينجوَ منها إلّا مَن استعدّ، قال تعالى:﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(ق:٢٢).

وكان أحدُ الرّجال يصعدُ على سورٍ في مدينته، وأهلُ المدينة يُسمّونه المجنون، وكان ينادي مِن أعلى السّور وبأعلى صوته: **الرحيلَ الرحيلَ**، إنّه يقول الحقيقة؛ فنحن مُسافرون لا محالةٍ، فإذا رأيتَ أحدًا يقع في معصيةٍ ما؛ فذكّرْه بأنه مُغادرٌ هذه الدّنيا بلا عودةٍ.

وعن سهل بن سعد -رضي الله عنه- قال: جاء جبريلُ إلى النبي ﷺ وقال له:**"يا محمّد! عِش ما شِئتَ فإنّك ميّتٌ، وأَحبِبْ مَن شئت فإنّك مُفارِقُهُ، واعملْ ما شئت فإنّك مَجزيٌّ به، ثمّ قال: يا محمّدا! شرفُ المؤمن: قيامُ اللّيل، وعزُّهِ: استغناؤُه عن النّاس"**[3].

وقد قدّم لنا جبريل -عليه السّلام- وصفةً للتّعامل مع الدّنيا، لا للدفع إلى اليأس، فعلى الإنسان -مهما عاش- أن يتذكّرَ أنّه سيموت بأيّ لحظةٍ، فلا يوجد إنسانٌ على الإطلاق في مَأمَنٍ من الموت، وعملُه هو الذي سيحدّد مكانه يوم الحساب، لا مدّة عمره، ومهما أحبَّ مِن أحبابه وأهليه فإنّه سيُفارقهم لا محالة، ومهما عمل مِن عملٍ فإنّه سيُثاب عليه خيرًا إن كان خيرًا، وسيُعاقَب عليه إنْ كان شرًّا.

كما أنّ شرفَ الإنسان الحقيقيّ ليس بسيرتِه الذّاتيّة، ولا بتاريخِه المِهنيّ، بل بإقامتِه اللّيل، لأنّ صلاةَ اللّيل عبادةٌ سريّةٌ بين العبدِ وربِّه حيث يكون الإنسان مُنقطِعًا عن الدّنيا وسُكّانها، مَوصولًا بربّه، فهل بعد هذا شرفٌ؟!
ذلك أنّ عِزّةَ الإنسان الحقيقيّة إنّما تكون بالاستغناء عن النّاس، والاعتمادِ على الله والاستعانة به وحدَه.

فعن عبد اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: مَرَّ بِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أُطَيِّنُ حَائِطًا لِي أَنَا وَأُمِّي، فَقَالَ:**"مَا هَذَا يَا عَبْدَ اللَّهِ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ شَيْءٌ أُصْلِحُهُ، فَقَالَ: الْأَمْرُ أَسْرَعُ مِنْ ذَلِكَ"**[4].

فالنّبيّ ﷺ مرَّ بعمرو بن العاص -رضي الله عنه- وهو يصلح ما قد فسد من بيته، أو يعمل فيه لتقويته. وفي رواية لأبي داود: **"وأنا أطيّنُ حائطاً لي"** فقال: **"الأمر من ذلك"**، أي: الأجل أقرب من أن تصلحَ بيتك خشية أن ينهدم قبل أن تموت، وربّما تموت قبل أن ينهدم، فإصلاحُ عملك أولى من إصلاح بيتك.

[3] أخرجه الحاكم في مستدركه، وحسّنه الألباني.

[4] أخرجه أبو داود في سننه، وصحّحه الألباني.

قال الله تعالى مُخاطِبًا نبيَّه ﷺ في كتابه العظيم: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(طه:١٣١)، فالخطاب هنا للأمّة كلّها أيضًا، لأنّ الأمة تُخاطَب بشخص نبيّها، ونلاحظ أنّ الله تعالى سمّاها **زهرةً**،والزّهرة تتفتّحُ وتكون جميلةً، ثمّ يكون مصيرها الذّبول.

وقالت عائشة -رضي الله عنها- في حديث قصّة الإفك: **"... وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذاك خفافًا لم يهبلْنَ، ولم يغْشَهُنَّ اللّحم، إنّما يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ ..."**[5]،فالشّاهد أنّ طعامَهن لم يكن مخلوطًا بلحمٍ، بل كان عُلقة، أي: شيءٌ قليلٌ جدًّا مِمّا يَعْلَقُ بالأصابع.

يقول ﷺ: **"بدأَ الإسلامُ غريبًا وسيعودُ غريبًا كما بدأ، فطُوبى للغُرباء"**[6]، ليستِ الغربة في الشّكل، بل في المشاعر، وفي اتّخاذ القرارات، فالإنسان الغريب هو المُتتبِّع لأمر المولى عزّ وجلّ، الوقّافُ عندَ حدودِ الله تعالى، الحريصُ على رضا الله قبل رضا البشر، فهذا الاختلاف هو الذي يجعل المؤمنَ غريبًا، لأنّ انفعالاتُه محكومةً بما يريده الله عزّ وجلّ، فحَرِيٌّ بنا أنْ نكون غرباءَ، وأنْ نربّيَ أبناءَنا على ذلك.
يقول الحسنُ البصريّ -رحمه الله-: **"مَنْ نافسَك في دينِك فنافسْه، ومن نافسَك في دنياك فألقِها في نحرِه"**،

فعلى المنافسة أن تكون في أمورِ الدّين والتّقرّبِ من الله تعالى، أمّا الدّنيا فلا تستحقُّ أيَّ تنافسٍ، وإنْ اصطدمت بمَن يريد خوضَ المنافسةِ عليها فارْمِها كلّها في أحضانِه.

وليست فكرةُ الرّحيل في أنْ تعيشَ بنكدٍ وهَمٍّ وغَمٍّ، بل أن تضعَ الدّنيا في مَقامها وفي حجمها الحقيقيّينِ، وإيّاكَ أنْ تقاتلَ لأجلها، واطرحْها فإنّها -واللهِ- زائلةٌ، ولا تنسَ للحظةٍ أنّك مسافرٌ، والمُسافرُ غريبٌ بلا شكٍّ.

<u>ثالثًا- العيشُ بإعدادِ زادِ الآخرة:</u>

تكلّمنا -قبل قليلٍ- عن اعتباراتٍ معنويّة ونفسيةٍ، وسنتكلّم الآن عن شيءٍ ماديّ وعمليٍّ، وهو التزوّد بالزّاد، فنحن لم نُخلَقْ في هذه الدنيا لأجل قضاء الوقت فحسب، بل يجب علينا أنْ نُعِدَّ العُدَّة، ونكسِبَ الحسنات، فغايةُ الحياة مُختصرَة -كما أسلفنا- في الآية الكريمة: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك: 20).

---

[5] أخرجه البخاري في صحيحه.

[6] أخرجه مسلم في صحيحه.

وانطلاقًا من هذه الغاية؛ لا بدّ لنا أنْ نستثمرَ هذه الدّنيا استثماراتٍ أُخرَوِيّةٍ، ومعنى هذا؛ أنّ كلّ حياتنا الدّنيويّة هي استثمارتٌ أخرويّة: في البيت، أو في العمل، مع الأهل، أو مع الزّوجة... والمُستثمر الناجح مَن يجعلها تعود عليه بالفائدة، ويجعلها بابًا لجنة الخلد، أمّا المُستثمر الفاشل فلا يجني إلّا الخسارات.

فتذكّرْ -أخي المسلم- أنك مسافرٌ بلا رجعةٍ، واحزِمْ أمتعتك، واملأْ حقائب الآخرة بالأعمال الصالحة.

ولا تكن مِن فئةِ الكفار الذين سيحوْل الله تعالى بينهم وبين ما يشتهون مِن التّوبة والعودة للدّنيا ليؤمنوا، وليعملوا صالحًا، فإنّهم سيتمنّون العودة ليقولوا: "**لا إله إلا الله**"، ولن تنفعهم أمانيّهم.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾(سبأ: ٥٤).

ونذكر قصّة الرجل الذي دخل على أبي ذرٍّ الغفاري -رضي الله عنه- فقال له: يا أبا ذر أين المتاع؟ فأجابه: إنّ لنا بيتًا غير هذا نُرسِلُ إليه صالحَ متاعنا، فقال الرّجل: إنّك تحتاج متاعًا طالما أنّك هنا، فقال له أبو ذرّ: إنّ صاحب البيت لا يَدَعْ [أي: لن يدعَنِي أقيم فترةً طويلةً]، والشّاهد هنا أنّ أبا ذرّ لم يكن يَعُدّ الأثاث متاعًا، ولم يطمع بذلك يومًا، بل كان يعتبر المتاع هو الأعمال الصّالحة المُعدَّة للآخرة.

لذلك يجب عليك -حفظَكَ الله- أن ترسلَ لآخرتك أجودَ الأعمال وأنفسَها، وأن تَزْهَدَ في الأملاك الدّنيوية.

فعن عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "مَا بَقِيَ مِنْهَا؟ قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا قال: بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا"[7]، فعائشة -رضي الله عنها- تصدّقت بالشّاة كلّها عدا الكتف، لأنّ النبي ﷺ كان يحبّه، فلمّا سألها أين الشّاة قالت: ذهبت كلّها وبقي كتفُها، لكنّ النبي ﷺ وضّح لها الحقيقة قائلًا: بقيتْ كلُّها وذهبَ كتفُها، فالجزء الذي ذهب للصّدقة هو الذي بقي، وسيبقى في صحيفة الأعمال، ولذلك فإنّ الله عزّ وجلّ أمرَنا أن نتصدّقَ بأفضلِ وأجودِ ما نملك، لا أنْ نتصدق بالممتلكات البالية، يقول جلّ في علاه: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٩٢).

وعن أَنَسٍ، أَنَّ رَجُلًا قال: يَا رَسُولَ اللهِ: " إِنَّ لِفُلَانٍ نَخْلَةً، وَأَنَا أُقِيمُ حَائِطِي بِهَا، فَأْمُرْهُ أَنْ يُعْطِيَنِي حَتَّى أُقِيمَ حَائِطِي بِهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَعْطِهَا إِيَّاهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ " فَأَبَى، فَأَتَاهُ أَبُو الدَّحْدَاحِ فَقَالَ: بِعْنِي نَخْلَتَكَ بِحَائِطِي. فَفَعَلَ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي قَدِ ابْتَعْتُ النَّخْلَةَ بحائطي. قَالَ: "

[7] أخرجه التّرمذي في سننه، وصحّحه الألباني.

فَاجْعَلْهَا لَهُ، فَقَدْ أَعْطَيْتُكَهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " كَمْ مِنْ عَذْقٍ رَدَاحٍ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ " قَالَهَا مِرَارًا "[8].

وفي هذا الحديث درسٌ عظيمٌ في الصّدقة، لأن أبا الدّحداح تصدّق ببستانٍ كاملٍ، لأنّه يعلم علم اليقين أنّ مكانها في الجنة أعظم بكثيرٍ من مكانها في الدّنيا الفانية.

فعندما نقول أعِدَّ زادك لذلك اليوم؛ فإنّنا نتكلّم عن رصيدٍ مضاعَفٍ ستجنيه في آخرتك، فلا تركَنْ إلى الدّنيا ولا تحرَصْ عليها، فما ستُبقِيه فيها سيذهب للورثة، أمّا الذي ينفعك فهو ما سترسله إلى الدار الآخرة، فذاك هو الذي سيستقبلك، وهذا ما علّمنا إياه سيّدنا محمّدٍ ﷺ عندما قال:"اغتنمْ خمسًا قبلَ خمسٍ؛ شبابَك قبل هرمِك، وصحتَك قبل سَقمِك، وغناك قبل فقرك، وفراغَك قبل شغلك، وحياتَك، قبل موتِك"[9].

1. **شبابَك قبلَ هَرَمِك:** فالحياة تسير للأمام، وإنْ لم يأتِ الموتُ فسيأتي الكِبَرُ، وهذان خياران أحلاهما مُرٌّ، لكنّ النبي ﷺ يعطيك الحلَّ سريعًا؛ فأنت الآن تستطيع أن تسجدَ، وتبذلَ، وتعملَ... فاستغِلَّ ذلك قبل أن يأتي يومٌ تتمنّى فيه أنْ يعودَبك الزمان لتعيدَ كلّ ما فرّطتَ به، ولن يفيدك الندم.

2. **صحّتَك قبلَ سَقَمِك:** فلا تأمنْ على نفسك الأيّام، فكلُّ البشر مُعرَّضون للإصابة بمرضٍ مؤلمٍ يسبّب لهم وهنًا مُزمنًا، وإرهاقًا أبديًّا، فلا أحد محصّنٌ من الابتلاء، وفي لحظةٍ واحدة قد يتحوّل الإنسان من صحيحٍ إلى سقيمٍ، وبالتّالي لن تستطيعَ فعل ما كنتَ ستفعله لو بقيتْ صحتُك.

فإذا ما زلت شابًا، وبكامل عافيتك وصحّتك، فاعلمْ أنّك في نعيمٍ عظيمٍ، وهذا من إرادة الله عزّ وجلّلك، وشتّان بين مَن نشأ في طاعة الله عزّ وجلّ، وعرف الطريق مُبكّرًا واستمرّ فيه، وبين مَن تأخّر كثيرًا، فكلا الفريقين خيرٌ، لكنّ الفوارق تكمن في الدّرجات، لذلك قال النبي ﷺ: "سبعةٌ يُظلُّهمُ اللهُ في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلّا ظِلُّه -وذكر منهم-شابٌّ نشأ في طاعةِ اللهِ عزّ وجلّ"[10].

---

[8] أخرجه أحمد في مسنده، وصحّحه محققو الكتاب.ذ

[9] أخرجه الحاكم في مستدركه، وصحّحه الألباني.

[10] أخرجه البخاري في صحيحه.

3. **غناكَ قبلَ فقرِك:** قد يكون لديك المال، والوظيفة، وقد تكون من أصحاب الدّخل الجيّد، ولعلّك ممن سيرث عن أهله... فاستغلَّ هذه الحال، وابذل في طرق الخير، لأنّ الأرزاق من الله تعالى، والله تعالى حكيمٌ عليمٌ، ونحن نجهل حكمته، فلا تدري متى يجعلك فقيرًا، فكم من رجال الأعمال ناموا على ثرواتٍ عظيمةٍ، واستفاقوا على انهيارها، فإنْ كنت من أصحاب المال فابذلْ في الخير ولا تنتظرْ ولا تؤجّل.

4. **وفراغَك قبلَ شُغلِك:** إنّ نعمةَ الفراغِ نعمةٌ عظيمةٌ، فكم من أناسٍ يتمنّون لو يملكون من الوقتِ ساعةً لسماعِ درسٍ دينيّ، أو لقراءةِ جزءٍ من القرآنِ الكريم، فبعضُهم تجبرُه لقمةُ العيش على العملِ أغلبَ ساعاتِ اليوم، فإنْ كنتَ تملك وقت فراغٍ، فاستثمرْه في الخيرِ وأعمالِ البرّ. فلا تدري متى يدورُ الزّمن دورتَه، وتتمنّى أن تجدَ ذلك الوقت.

5. **حياتَك قبلَ مماتِك:** فإذا جاءَ الموت، وخرجتِ الرّوح، فستتمنى أن ترجعَ لتصلّيَ ركعةً، أو لتتلوَ آيةً، أو لتقومَ ليلةً... فأعدَّ الزّاد، واستثمرْ ساعاتِ عمرِك قبل الرّحيل.

هذا كلُّه في احتسابِ إعدادِ الزّاد، فاغتنمْ خَمسةَ الظروف واجعلْها أمامَك، واحرصْ على عدم إهمالِها، أو إهدارِها فيما يضرُّك، فلعلّك تتحكّم الآن بترتيبِ جدول أعمالك اليوميّ، فلَربّما تأتيكَ أيامٌ وفصولٌ أخرى لا تتيحُ لك ذلك.

رابعًا- العَيش بنفسيّةِ السِّباق:

إنّ فصولَ الحياة تستوجِبُ علينا -إذا ما أردنَا النّجاة- أنْ نعيشَها بنفسيّةِ السّباق، فعندما تكلّمَ الله تعالى عن الدّنيا وعن السّعي للرّزق أمَرَنا أنْ نمشيَ في جوانبها ونواحيها، فقال جلّ جلاله:﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك: ١٥).

وعندما تكلّمَ عن طُرِقِ دخولِ الجنّة أمَرَنَا أن نتسابقَ في السّعي إلى أسبابِ المغفرةِ من التّوبةِ النّصوحِ والابتعادِ عن المعاصي، فقال عزّ وجلّ:﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(الحديد: ١٢).

فلاحظْ -أيّها المُتدبِّر- العُدولَ من (**سارِعُوا**) إلى (**سابِقُوا**)؛ فعليك أنْ تسابقَ عمرَك وحياتَك، فإنّك لا تعلمُ متى يحضرُ الأجَلُ، فسابقْ وقتَك، فإنّك لا تعلمُ متى يتوقّفُ عدّادُ العمر.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **"إنّ في الجنّةِ مائةُ درجةٍ، أعدّها اللهُ للمجاهدينَ في سبيلِ الله، ما بين الدّرجتينِ كما بين السّماءِ والأرض"**[11].

فتخيّل! المسافةُ بين الدّرجتين تساوي ما بين السّماء والأرض مائةَ مرّةٍ، فما بالُك بالمسافةِ بين الدّرجةِ الأولى والدّرجة المائة؟ فكم تحتاجُ من عملٍ كي تتعدّى الدّرجةَ الأولى؟ وكم من عملٍ تحتاج كي تتعدّى عشرَ درجاتٍ؟ فالأمر بحاجةٍ إلى اجتهادٍ حقيقيٍّ، بخشوعِ القلب، وإعمالِ الجوارح.

وقد تحدّث الله تعالى في **(سورة المؤمنون)** عن **فريقين:**

1. **فريقِ الكفّارِ العُصاة:** فهؤلاء يُمِدُّهم الله تعالى بالأموالِ والأولادِ لا لأنّهم يستحقّون ذلك، بل فتنةً لهم واستدراجًا، ولكنّهم لا يُحِسُّون بذلك، يقول الله عز وجل:﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾(المؤمنون: ٥٥-٦٥).

2. **فريقِ المؤمنينَ الطائعين:** فهؤلاء مجتهدون في الطّاعة، دأبُهم المُسارعةُ إلى كلِّ عملٍ صالحٍ، مهما تقلّبتْ بهم فصولُ الحياة، يقول الله عزّ وجلّ:﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (59) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾(المؤمنون: ٥٧-٦١).

فانظرْ إلى هؤلاء الذين فهموا كيفيّةَ الحياة، فهم يخافون اللهَ ويوقّرونَه ويعظّمونَه، ولا يشركونَ به تحت أيِّ ظرفٍ من الظّروف، ومهما تقلّبتْ أحوالُهم فالتّوحيد دَيدَنُهم، يستنيرون بنورِ**(لا إلهَ إلّا الله)**، ويحاربونَ الشّيطان، ولا يمتثلونَ للشهوات، ويؤمنون بآياتِ ربِّهم الشّرعيّة والكونيّة، ويأتمرونَ بأوامرِه، وينتهونَ عن نواهيه، يجتهدونَ في أعمالِ الخيرِ والبرِّ وقلوبُهم خائفةٌ ألّا تُقبَلَ أعمالُهم، وألّا تنجيَهم من عذابِ ربّهم إذا رجعوا إليه يومَ الحساب، وهذا بالضّبطِ ما تساءلتْ عنه أمُّ المؤمنين.

[11] أخرجه البخاري في صحيحه.

فعن عَائِشَة - رضي الله عنها - قَالَتْ: "قُلْتُ: يا رَسُولَ الله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهم الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ! وَلَكِنَّهُمُ الَّذِين يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَيَخَافُونَ أَنْ لَا يَقْبَلَ مِنْهُمْ: أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ"[12].

فهؤلاء يفعلون الخيرَ ولا يعظّمون شأنَه، بل يفعلونَه ويشعرونَ بالتّقصير، فمهما بذلَ هؤلاء واجتهدوا لن يبلُغُوا نعمةً واحدةً من نِعَمِ الله جلّ جلاله، ذلك أنَّ نِعمَ الله تعالى لا تُعَدُّ ولا تُحصَر.

إنّ أفرادَ الفريقِ الثّاني يعيشون حياتَهم بنفسيّةِ السّباق، يُسابِقون إلى اللهِ عزّ وجلّ لأنّهم على يقينٍ تامٍّ أنّهم راجعون ليومٍ لا ريبَ فيه، يومٌ سمّاه بعضُهم: يومَ الفضائح، ففيه يُكشَف كلُّ شيءٍ، حيث يُرفَع لِواءٌ فوق كلِّ إنسانٍ كانت لديه غدرةٌ أو مَظلمةٌ في الدّنيا، فيا له من مشهدٍ تَخِرُّ له القلوب.

لذلك فلْنكنْ مع الفريق الذي **يُسارع ويُسابق** في الخيرات، لا مع الفريق الذي يُمَدُّ له بالأموالِ والبنينَ استدراجًا وتحضيرًا له لعذابٍ أليمٍ.

وفي الختام؛ نُذكِّرُ أنّ هذه المشاعر الأربعة: الشّعورُ بأنّك في دارِ ابتلاءٍ وامتحانٍ، والشّعورُ بأنك على سفرٍ وفي دارِ رحيل، والشّعور بأنّه لا بدّ لك من إعدادِ الزّاد، والشّعور بأنّك في سباقٍ مع الحياة، كلُّ هذه المشاعر تسوقُك للثّبات في فصولِ الحياة المتقلّبة،

إذْ لا ينبغي لك الميلُ مع الرّيح، بل كُن شجاعًا، ولا يصُدَّنّكَ عن تلك المشاعرِ أيّ مُثبّطاتٍ، اجعلْها مبدأً لا يمكن الانزياحُ عنه، وادّخرْها في رصيدِك الذي ستجني أرباحَه في الآخرة، فكن مُستثمِرًا ناجحًا، واستفِدْ من دَفَقَات الإيمانِ بداخلِك، ووجّهها بكلِّ عزيمةٍ نحو الخير، حتّى إذا ما أصابَها الفتورُ فَتَرَتْ على خيرٍ.

أسألُ اللّهَ سبحانَه وتعالى أنْ يجعَلَنا مِمّن يستعملُهم في طاعتِه، وأنْ يجعلَنا من أصحابِ هؤلاء المشاعر الأربعة، وأنْ يجعلَ خيرَ أعمالِنا خواتِمها، وخيرَ أيّامنا يوم أنْ نلقاه، والحمد لله ربِّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين، نبيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آله وصحبِه أجمعين.

تنويه: مادة المحاضرة جمعت من مصادر عدة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتُناسب القرّاء وبما لا يُخلُّ بروح المحاضرة ومعانيها.

[12] أخرجه التّرمذي في سننه، وصحّحه الألباني.